ليس لدينا إلا الكلمة...

يسهل في لبنان شراء الصحافيين، وفق الحديث المنسوب الى الرئيس اميل لحود. ويسهل في لبنان ايضا، قتل الصحافيين وطرح جثثهم في الشوارع لجعلهم عبرة لمن يعتبر، كما في جريمة اغتيال الزميل سمير قصير امس.

وليس أغلب الصحافيين من الطهر والعفة ليزعموا أنهم لا يريدون شيئا لانفسهم. فهم يريدون اشياء كثيرة، لانفسهم ولمواطنيهم وللبشر اجمعين، اولها القدرة على ممارسة العمل من دون التعرض للموت. ثانيها الحق في التعبير عن الرأي وهو ما يعادل القيام بالحد الادنى من واجباتهم المهنية. ثالثها حصر التعامل معهم بالاسلوب الذي يعملون به. فالكلمة تقابَل بالكلمة، على الاكثر.

يعلم الصحافيون اللبنانيون بالآثام التي يرتكبها بعض من زملائهم باسم المهنة، ويعلمون هشاشة وضعهم وقد تلمسوها ودفعوا ثمنها على امتداد التاريخ الطويل للصحافة اللبنانية. انما هذا مما لا يجب ان يحوّل الأنظار عن نقطة ما زالت رحى الصحافة في هذا البلد تدور حولها منذ عقود: سيكون الوضع في لبنان من دون صحافة تتمتع بالنزر اليسير من الحرية، أسوأ منه معها. ويمكن بسهولة وضع لائحة بالقضايا التي اثارتها الصحافة اللبنانية في الاعوام الماضية وحملت لواءها حتى تحققت انجازات ملموسة لاصحاب القضايا، هذا من دون ان يكون المرء ساذجا الى درجة لا يلحظ فيها التوظيف والاستغلال السياسيين الكثيفين لكل هذه وغيرها.

مع ذلك، يخوض صحافيون شرفاء معارك عادلة مستخدمين كل ما أوتوا من وسائل: الكلمة وحدها. ولعل اغتيال سمير قصير يشير الى ان الكلمة لم تفقد وزنها ودورها في بلد جرى اجتياحه مرات ومرات من قبل الصور المنمّطة وألسنة الخشب والإعلام الموضّب والمعلّب. لقد كانت الكلمة قادرة على اعادة رسم صورة جديدة ومغايرة للواقع. واصحاب الكلمة مدعوون اليوم الى التمسك بسلاحهم واستغلاله على النحو الافعل والاجدى. فالمساومة في هذا الموقع تساوي الاستسلام امام العبوات الناسفة وكواتم الصوت وغيرها من الادوات التي اقتصت وتقتص من الصحافيين في هذا العالم العربي البائس، منذ عقود.

ولا بأس من الاشارة الى ان الزميل الراحل يمثل نقطة تقاطع بين سلسلتين من شهداء عمليات التصفية التي تعرض لها مثقفون وكتّاب وصحافيون لبنانيون وعرب. فهو، بانتمائه الى قوى التغيير، يمثل «الجيل» الجديد من شهداء الثقافة اللبنانية وخصوصا جناحها اليساري، كحسين مروة ومهدي عامل وغيرهما. وينتمي في الوقت ذاته الى قافلة شهداء الصحافة الذين سقطوا في مواقع مختلفة.

وفي هذه اللحظات السوداء، ينبغي ألا تضيع المسؤوليات عن الجريمة، وهي تشمل كل ذوي السلطة بغض النظر عن موقعهم من خريطة الفرز السياسي. فلا يمكن تصديق ان وزيرا لا يتحمل وزر ما جرى لأنه ينتمي الى «لون» معين. فكل من هم في مواقع القرار مسؤولون حتى اشعار آخر.

وإذا أرادت المعارضة ابداء قدر من الوفاء لأحد ابنائها الذين استُفردوا وهم عزل من القبيلة والطائفة و«السند» القوي، فعليها التخفيف من غلواء خطابها الفئوي الذي لا يتورع عن تمزيق اجساد الرفاق السابقين من اجل مقعد انتخابي. بهذا المعنى يمكن ان يشكل استشهاد سمير قصير نقطة انعطاف نحو توحيد المعارضة او نحو نسفها وتشظيتها الى اجزاء لا يجمع بينها الا شهوة السلطة.

والى جانب كل الرسائل التي اراد القتلة توجيهها، هناك رد يزداد تمسك الصحافيين به بعد كل جريمة من هذا الصنف: ليس لدينا إلا الكلمة... ولن تأخذوها.

حسام عيتاني